العلم والعمران بعد غد

هل يقضي العلم على العمران ام يهذّب اخلاق الناس فيجتنبوا شروره ؟

الاهتزازات والفكر

... وهناك مسائل اخرى لا وجود لها في دائرة الحياة المادية بحالتها التي الفناها ولكنها قد تبلغ الحد الفاصل بين الزمن والازلية . ومنها ما يأتي : ما المادة ؟ ما الزمن ؟ فهذان سؤالان لا يستطيع السير أوليفر لودج وأترابه الاجابة عنهما

وابنشتين نفسه ، الذي لا يفهم نظريته الا القليلون منا على حين يخبط بعضنا خبط عشواء في تفسير أفكاره — يؤكد ان الوقت مما يجدر الاهتمام به في ما يتعلق بالمسافة التي بين شيء متحرك وآخر . وعلى أية حال فاني اعتبر هذا القول خلاصة ما ادركهُ من نظريته واسهل ما ابسطها به . ألا يصح ان تكون هذه الاهتزازات التي تتقدم للبحث فيها متذرعين بما أوتينا من علم حديث يشوبهُ جهل مطبق ، جزءاً من قوة الكون الازلية ؟ أو ليس الفكر نفسهُ اهتزازاً يتصل بعقول الآخرين بعد اجتيازه مسافات سحيقة بأمواج من اطوال معينة دُوزنت لالتقطها بعض العقول الذكية اذا كانت شديدة الاحساس

والاهتزازات الفكرية أيضاً يمكن ادخارها وتسجيلها على الاسطوانات ثم اعادة ترديدها فتضارع حينئذٍ قوة الجواهر الفردة من حيث عدم فناء قوتها فتبقى بعد مضي الوف من السنين في مكان ما

أولا توحي الينا هذه الافكار تفسيراً علمياً للقصص القديمة الخاصة بالارواح والبيوت المسكونة بالشياطين والخيالات وما شاكلها ؟

وعندي أن هذا في حيز الامكان من حيث ان بعض الفعال المهيجة من حب وغضب وسواها من الانفعالات النفسية الشديدة الماضية وظهور الشخصيات البارزة قد يستمر صدوره من طريق الاهتزازات في البيوت القديمة او في اي مكان آخر وتمكن مشاهدتها كما شوهدت هناك من مئات السنين صادرة من عقول ذات احساس شاذ واستعداد خارق للعادة حتى كأنها ميكروفونات بشرية

وقد تمكن ذات يوم من الاصغاء الى ابناء الصور الغابرة فنبصر اهتزازات

الاجساد التي مضى على موتها عهد طويل — هذه ضالتنا المنشودة — ولكنها صعبة المنال . وما من امرىء يستطيع ان يقول في هذه الشؤون قولاً ويجزم بان قولهُ صواب بيد ان الجمهور يشعر شعوراً ضئيلاً بأن اسراراً عظيمة تحدق به ممثلة في الاعيب الاذاعة والتلفزة

وقد جاءتني من عهد قريب رسالة مقتضبة من احد اصدقائي، من غير العامة ، بل من أديب جليل بالولايات المتحدة الامريكية وما قرأتها حتى سقط في يدي — وفحواها كالآتي : — « اذكر اني منذ اشهر قليلة قد سمعت امرءا ينبأ بدنو الزمن الذي ستتمكن فيه من دورنة آلات استقبال الاخبار في بيوتنا حتى نسمع لكن يخطب قومه في مدينة جتيسبرج ». واستدرج من هذا الى القول :

«واتفق بعد يومين اني كنت احلق ذقني وحيتي في الصباح إذ جال بفكري خاطر مدهش وهو اننا سوف نسمع يوماً ما سيدنا يسوع المسيح يلقي عظاته الالهية على الجمع المحتشد على الجبل » — خواطر رائعة تنم عن جرأة وتدل على مبلغ ما وصلت اليه أوهام الانام مدفوعين اليها بعوامل هذه الاكتشافات التي تستجد على الدوام

وهب أنا أصبحنا وفي قدرتنا سماع عظة رب المجد على الجبل ، تلقى كما القاها في حينها نذيراً للجمهور . فهل سماعنا إياها وتأثرنا بها يجعلنا أشد تمسكاً بقواعدها الذهبية وارشاداتها الالهية ، فنرعوي عن غينا ونتوب الى رشدنا فنصبح أكرم أخلاقاً وأشد عطفاً في علاقاتنا بعضنا على بعض ؟

أو هل لنا أقل شراهة واحتداداً في طباعنا واضعف أنانية في نزعاتنا وأقل قسوة مما جبلنا عليه ؟

ويبدو لي ان قراءة عظة السيد على الجبل لا تؤثر في سنن الحياة ولا تغير المستوى الادبي الذي بلغهُ البشر فهل يُحدث سماعها الاثر المنتظر ؟

تعاظم القوى وانحطاط الاخلاق

وهذا مما يثير موضوع البحث في مبلغ ما يعود من النفع على الخلق من استخدام القوى الجديدة التي خلقها وسيخلقها لهم العلماء بمباحثهم التي تنم على الاقدام والجرأة في مناقضة الاقوال التي كنا نحسبها لا تنال بتغيير او تبديل

وهذا الموضوع أعظم حلقة في سلسلة التحسين المادي برمتها ، فقد جعلت احوال الحياة تخطو خطوات واسعة في سبيل التغير . اذ قُبِّضت للجنس البشري آلات

جديدة هائلة . وهبَّ العلماء لا يلوون على المصاعب ينشدون مصدر القوة الاساسيَّ

ولكنَّ الورى بسبب ما هم عليه من ضعف الارادة، ما زالوا مقصرين في اكتساب القوى العقلية بنسبة ما يسنح لهم من الفرص ، معرضين عن التحلي بأية حلية خلقية تكفل لهم السلامة من شر تلك القوى

ومن أغرب الامور التي توجب الدهشة والاسف أن الانسان الذي أخضع لسلطانه جميع قوى الطبيعة لم تبدُ عليه اعراض أية قوة من قوى الارتقاء الخلقيَّ منذ فجر التاريخ ، ولم يتقدم تقدماً محسوساً بدنيًّا او خلقيًّا

ومن الثابت ان الناس ، كما هم في البقاع الصناعية ، قد انحطت قوى ابدانهم ولم يسموا على أسلافهم في قوى الاذهان . والذي نعرفهُ ان قامة الرجل في العصور الحجرية الاولى ، عند ما كان الناس يسكنون الكهوف ، كانت تبلغ ست اقدام وثلاث بوصات طولاً . وكان دماغهُ يفوق دماغ الرجل الاوربي الحالي بمقدار السدس وزناً. وكانت حواسُّهُ من بصر وسمع وشم اشد منها الآن

ولا مندوحة لنا عن الاعتراف بكل دعة ، اذا لم نرد التضلل في تواريخ الازمنة الغابرة بان شعوب الحضارات الاولى ، كالاغريق في ابان مجدهم ، قد امتازت بقوى عقلية بارزة ظهرت آثارها في فنونهم وفلسفتهم. واذا شئنا ان نوازنها بما يقابلها في العصر الحاضر لم يخرج الاغريق منها في الكفة المرجوحة

وما برحت غرائزنا العتيقة ، وشهواتنا وانفعالاتنا النفسية ، على حالها الاولى فتثور وتستولي علينا غيلة اذا ما غضضنا الطرف هنيهة عن شريعة الاجتماع او اذا لم يكن لنا من ديننا او شرائعنا الروحية وازع لكبح جماحنا في حياتنا . وحسبنا دليلاً على ذلك الحرب العظمى فقد كانت كارثة اثبتت لنا ان رجالاً متحضرين مثل كتبة الدواوين والنوابغ والشبان المهذبين تهذيباً سامياً — قد يصيرون وحوشاً ضارية تشتهي إراقة الدماء البشرية وتقبل على التقتيل بلا رأفة أسوة بالقبائل المريقة في التوحش التي كان بعضها يقاتل البعض الآخر بالفؤوس الحجرية والسهام ذات الرؤوس العظمية

وعندي ان هذا ما يرهبهُ العلماء اشد الرهبة حينما يتأملونهُ . أجل انهم يرتاعون عند ما يعهدون الى الشبيبة بمخترعاتهم الخطرة — واقصد بالعلماء فريقاً من صفوتهم اتيحت لي محادثتهم والتنور بثاقب افكارهم وهم روَّاد المباحث في طبيعة المادة والقوة وقد

اعربوا حديثاً عن تلك المخاوف التي يتوقعونها بسبب افضائهم الى العالم بنجاحهم في كشف مكنونات الطبيعة

ويقول العلامة صدي الكهاوي الشهير « ان القوة الطبيعية أسيرة العلم ، ولا بد ان تصبح خادمة للانسان او سيدة له » . ويوضح لنا المنطق العلمي بلا مناص ان هذه المسألة اذا لم نواجهها الآن فلا مندوحة لنا من مواجهة سوء عقبها بعدئذ . هذا ولم تنهض المثل الادبية العليا نهوض العلم لتمشي معهُ جنب لجنب بل ما زالت قاصرة عن اللحاق به والاتحاد معهُ اتحاداً . فاذا ظلت على ما هي عليه . وظل العلم سائراً سيرهُ الحثيث كانت النتيجة تقويض دعائم العمران

ويندر الاستاذ هولدين العالم مثل هذا الانذار المحزن اذ يقول : — « هل خلق الجنس البشري من رخم المادة شيطاناً رجيماً أخذ يتحفز للانقضاض عليه حتى اذا ما تهيأت لهُ الفرصة طوّح به في هاوية لا قرار لها ؟ »

ويقول برتران رسل « يزعم الجمهور أن تقدم العلم نعمة للجنس البشري ، ولكني اخشى ان يكون ذلك أضلولة من أضاليل القرن التاسع عشر التي ترتاح النفوس اليها والتي يجب نبذها من حيلنا الذي لا تجوز عليه الاباطيل ، لان العلم يمكن القابضين على ازمة القوة من نيل ما ربهم بأسرها اكثر مما ينالونها بغيروساطته . فان كانت تلك الامانى صالحة كان الظفر بها ربحاً ، وان كانت شريرة كان تحقيقها خسارة — ويلوح لنا ان نبات المسيطرين على القوة في هذا الجيل سيئة في الغالب »

ويقول الدكتور شلر من علماء كلية كُرْبُس كريستي بجامعة اكسفورد « إن البشرية ما زالت وحشية لأن الانسان ما برحت آدابه وطرق تفكيره مماثلة لآداب اسلافه الذين عاشوا في العصر الحجري ، فتراه كما كان على الدوام ، مخلوقاً غير عاقل ، سريع الانفعال ، سفيهاً . . . .

« ويبدو أنه من الخطر استهداف جبلة غير مرنة كجبلة هذا المخلوق ، المحافظ على القديم من عادات وغيرها كل المحافظة ، للتطور تطوراً حثيثاً ، لانه لا يستطيع تكييف نفسه تكيفاً عاجلاً كي يلائم ذلك التطور وقد تصبح تصرفاته ، المقصود بها تبادل المنفعة ، والتي ما كانت لتضره بتاتاً او كانت قليلة الضرر له ، في أوج الخطر عليه

« ولا غرو فقد يذعر اكثر العلماء ، الذين لهم دراية بمستقبل الامور ، عند رؤية الاهواء الوحشية تثور ثوراناً جنونياً وهي ترفل في بزة الحضارة ! »

قوات التخريب

لقد شاهدنا أن كل تلك القوى الجديدة، التي استغلت من الطبيعة لتكون تحت سيطرة الانسان، تستخدم وسيلة للبلاء كما تستعمل ذريعة للرخاء الاجتماعي والرفاهية البشرية. وليس لخلاص أولادنا وأحفادنا وربما أنفسنا أيضاً من الفاجعة العالمية التي ستحدث بعد غد إلاّ وسيلتان وهما: اما عرقلة تقدم العلم وقتل العلماء عن آخرهم، وإما تغيير أخلاق الجنس البشري باصلاح آداب الهيئة الاجتماعية وتنقية غرائزها النفسية من أدران الاميال الشريرة »

أما إبادة العلماء، وبعضهم في مذهبي، أناس جديرون بالاعجاب فاني آسف عليها جد الاسف. وليس بمحق العلماء تغلق كتب العلم التي وعتاها عنهم، لان العقول المتعطشة لها لا بدّ من اطلاعها عليها ومواصلة الاغتراف من بحورها الفياضة التي تروي نفوسهم الظمآى

فلم يبقَ امامنا سبيل الاّ اصلاح الانسان نفسه. فهل هذا يا ترى في حيز الامكان؟ وهل في الاستطاعة رفع مستواه العقلي والادبي حتى لا تحارب امة اخرى ولا تنازل عشيرة سواها؟. وهذا كلهُ حلٌّ صعب المنال جداً

اما مستوى الذكاء البشري فانهُ آخذ في الانخفاض بسبب التناسل من غير الاصلح كما يقول انصار تحديد النسل

ويقول الدكتور شيلر « ان مدنيتنا تحمل في طياتها بذور انحطاطها وخرابها » وهذا العالم الذي يعد من المتشائمين تشاؤماً ذريعاً يعرب عن رأيه في هذا الصدد بقوله « ان الجنس البشري اذا اتيح لهُ الخلاص من الحروب الامبراطورية العالمية والحروب الطائفية والجنسية فلا يفضي هذا التخلص الى تحسين الحال في المستقبل تحسيناً كبيراً »

اما محق الجنس البشري محقاً بواسطة الحرب فهو في عرفه انحطاط، ولكنهُ لا يكون اشد فتكاً من انحطاطه التدريجي واندثار فنونه وعلومه اندثاراً بطيئاً اذا ماطما عليها سيل الضعف العقلي »

وهذا كلهُ مما يؤسف عليه. وانا لا اقرُّ انذاراً مروعاً كهذا الاّ اذا اضرمت نيران حرب عالمية اخرى واستخدمت فيها اسلحة جديدة اشدّ فتكاً بالارواح من الاسلحة التي استعملت في الحرب الاخيرة — وفي حيز قوة الانسان اتخاذ العلم عبداً لخدمته لا ماحقاً لذريته — وعندي ان الانسان في وسعه زيادة مواهبه العقلية وفضائله

الاجتماعية. وفي مقدورهم ابادة جراثيم الامحطاط التي تنخر دعائم العمران اذا وجدت وفي مكنته استعمال جميع هذه الاسلحة الجديدة الفعّالة في توسيع نطاق العقل والمعارف حتى يبلغ العالم الروحي ويدرك الحقيقة الازلية

وانا على يقين ان بعد غد ولا اقول في الجيل الذي يلي الجيل الآتي — اذا اتيح لنا النجاة من الفواجع الى ذلك الحين قد يصبح الجنس البشري وفي وسعه علاج نفسه من بعض ادوائه الاجتماعية ولاسيما الحروب الجنسية والطائفية للحصول على الثروة فيرتفع مستوى الرفاهة — ولا اقول السعادة الفردية . فم السعادة التي يصبو اليها الجمهور ولا ينالها الانسان بطبيعته يطمح على الدوام الى ما ليس في طاقته الوصول اليه وقلما يرضى بحالته ولا يقنع بهذه الحياة الزائلة الا اذا كان ذا مذهب روحي أو تخيلات يجد منها سلوى لنفسه. بيد أنه قد حان الزمن للجمهور ليتنبه من غفلته كي ينجو من المصائب التي ينذره بها العلماء

تعجيل النشوء والارتقاء

ولما كان لا مندوحة له عن مواجهة أحد الامرين المفضيين الى الكارثة لم يفتر العلماء انفسهم عن توجيه همهم الى العناية بابدان الناس واذهانهم وهم يستحثون الخطو نحو اصلاح اجسام الانام قبلما يوافيهم العلم وارباب الحمام ويهلك العلماء ايضاً قائلين « إن الانسان لم تتغير جبلته منذ بدء الخليقة ، فجدير بنا البدار الى غوثه باستعجال نشوئه وارتقائه »

وقد تواطأ العلماء على هذا التغير سواء أرغب فيه الانسان أم رغب عنه. ويتساءل علماء الفسيولوجيا قائلين « لِمَ ينشأ فريق من البشر وشيمتهم الحنو على الآخرين بينما نرى غيرهم من الشعوب طغاة قساة القلوب على الآدميين ؟

وما سبب اشتهار طائفة من الناس بالبسالة ، وجماعة أخرى بالجبانة والنذالة ؟ على حين توصم فئة غيرها بالحدة بدلاً من تحليها بالوداعة والرزانة. واذ يصاب فوج بالبلاهة ونقص العقل يزدان غيره بحدة الذكاء والبديهة ؟

فيجيب الدكتور (لويز برمان) عن هذا التساؤل قائلاً « انما ذلك كله يرجع الى علة واحدة وهي المفرزات الداخلية ، لان حدة الادراك وصفو الذاكرة وعدم مخالفة الافكار لاصول المنطق وسمو التخيلات ونزاهة الآراء وتهيج الافكار وكبح جماح الاهواء وكذا سائر اعراض الوجدان انما تتأثر بتلك المفرزات الداخلية »

اذن يخيل الينا أن تغيير أخلاق البشر انما يتوقف على مبلغ تكثير المفرزات الدنية المشار اليها او تقليلها . وعندئذ يصبح المجرم أنيس العشرة وعضواً محباً لخير الهيئة الاجتماعية. ويرعوي المتآمر الدنيُّ عن غيّه ويكفّ عن مكره ، ويرتدع الخليع عن تهتكه. وتتقشع شهوة تختلي الشعور في صفك الدماء البشرية سواء أكانوا في الحرب أم في السلم فيغدون مسالمين ، رقيقي الشعور ، محبين للاطفال ، مستنكرين تيتم العيال ، فتتحسن الحال وتتحقق الآمال كما يؤكد أولئك العلماء

والمستقبل كفيل بهذا التحسين اذا ما اسفرت هذه الآراء عن نتائجها المنطقية . وحينئذٍ لا تحكم المحاكم على السفاكين الاشرار بالموت بل بالاستهداف لعملية جراحية صغيرة قلما يخالطها ألم — وقد ينهج القضاة هذا المنهج في معاقبة اللصوص المتادي السرقة وفي إيقاع القصاص بالسفلة من الأمة الذين تدهورت نفوسهم في حمأة الرذيلة فلم يتمسن لهم انْ يعيشوا عيشة مستقيمة — فاذا تمت العملية السابق ذكرها وقضى العليل الخلقي أسبوعاً او نحوه في دور النقاهة منها ، برىء من سقمه الخلقي وعاد إلى الحياة المدنية رجلاً كريم الشيم متجدداً تجديداً تامًّا فيخدم بني وطنه بدماثة اخلاق . ولعلَّ ذلك يبدو للقارئ أمراً عجاباً

وهناك معضلة أخرى يسعى فريق من علماء البيولوجيا — علم أسباب الحياة واحوالها — في حلها ايضاً وهي : « ما الباعث على جعل مدى حياة الانسان ستين سنة مثلاً وكونه يقضي نحبه هرماً في تلك السن بينما تكون عياله أحوج الى ما اكتسبهُ من حنكة وخبرة ؟

ولماذا لا يُسرجأ شرب تلك الكأس أو على الاقل لماذا لا يزاد زمن الشباب الذي فيه يزهو البدن وينبسط ، ويصفو الذهن وينشط ؟ ولماذا هذا كله ضربة لازب ؟

وجواب الدكتور ڤورونوف عن هذا التساؤل « ارسلوا توًّا هؤلاء على بكرة أبيهم الى محل جراحتي فاعالجهم بطريقتي علاجاً يجدد شبابهم كما يغون »

أما طريقة ڤورونوف فتعتبر في وقتنا هذا من الوسائل القديمة قليلاً اذا قابلناها بالاسلوب الجراحي الذي وفق اليه الدكتور (شتينخ) الذي يزعم ان زميله ڤورونوف لم يبلغ شأوه في تجديد الشباب

ثم يلي ذلك مسألة الوراثة وتوليد نسل أفراده سخاف العقول ، نجاف الاجسام

مما يؤول الى انحطاط البشر . وهذه عقبة كأداء تحول دون نهوض الجنس البشري . ولعله وعيد يتوعد العمران نفسه عند المتشائمين مثل الدكتور (شلر) الذي يتكهن بما سوف يحدث من هذا القبيل

وقد جال علماء البيولوجيا في هذا الميدان جولة أخرى فزعم المستر (جوليان هكسلي) ان في استطاعته تغيير صفات التذكير والتأنيث في دعاميص الضفادع : وأن في مقدوره إنماء دعموصين منها من خلية واحدة تقسم قسمين عندما يتحتم عليه اتيان ذلك

وقد درس قوانين الوراثة الطبيعية وتأثير المؤثرات الخارجية في الجنين قبل ولادته وتأثير التغيرات الكيماوية في الكائنات الحيوانية الحية . فرأى ان هذه فرصة سانحة لتجيل نشوء الانسان وارتقائه وتغيير صفاته المميزة من بدنية وعقلية ثم وضع قاعدة صحيحة لتحسين نسله

وللاستاذ (هولدين) مذهب ايضاً في هذه المباحث مبني على تجاربه في تربية أجنة فيران في مصل مدة عشرة ايام سنة ١٩٢٥ . وعنده ان الاستمرار في هذه التجارب سيمكن العلماء بعد غد او فيما بعد ذلك او في سنة ١٩٥٩ على الابعد من انتاج اطفال بالطرق الصناعية (كذا) يطلق عليها اسم الاطفال المتولدة خارج الجسم

وانا لنخطىء اذا نحن اعتبرنا هذه النظريات برمتها ترهات لا اساس لها لان العلماء قد هموا بالعمل بل هم يمارسونه في وقتنا الحاضر وغايتهم تعديل وتبديل وسائط المعيشة وارشاد الناس الى طرق الحياة البدنية الطبيعية كما كانت عند خلق الخليقة وفقاً لما جاء في التاريخ ، ثم التأثير في عقول البشر واجسامهم بالمؤثرات الكيماوية وبواسطة طرق علم النفس وبتباين الطعام قبل الولادة وبعدها وبالتجارب الجراحية وبنسخ القوانين البدنية القديمة والتقاليد الفكرية كي يطول بتلك الوسائط دور الصبا ويمتد اجل الحياة ويتغير القانون الاجتماعي

ولكن اتثمر هذه المساعي الثمرة المشتهاة من سعادة بشرية في المستقبل ؟ او إن هنالك جحيماً جديداً يقيمه لنا العلماء على وجه البسيطة ؟ فاذا كان الامر كذلك فلا بدّ من ثورة البرية على العلماء والرقيعة فيهم والقضاء عليهم تخلصاً من لؤمهم وخشية اعادتهم الكرة للتحكم في اجسام الناس وانفسهم